الـزهـد المعـمـاري
التماس الروحي بين الأخلاق وحيثيات العمارة

(١-٢)

د. علي ثويني

يتلمس الجميع مدى البذخ الذي طرأ على محيا العمارة العراقية خلال العقود الأربعة الماضية، حينما تبارى المغتنمون للبلاد والمتسلطون على رقاب العباد وأصحاب الجاه والمنعمون الجدد ومتزلفوهم على التطاول والتظاهر والبذخ والخيلاء، حتى أختفت أعراف الزهد والتواضع التي أتسمت بها خلال رحلتها مع الزمن. فلم يكن للطبقات وإختلاف الرزق جلي تأثير في ملامح تلك العمارة وحيثياتها.والأمر نابع من وازع أخلاقي أسترسل منذ سومر و(أور نمو) و(كوديا) حتى مكارم الإسلام المحمدي. ومكث المبدأ صنوا للمنهج القويم للإيمان ووجد تباعا مثل كل التوجهات الفكرية،صداه في العمران والعمارة الإسلامية.

لم نكن نسمع منذ أجيال عن قصور ملكية،ولا رئاسية ولا (دبل فليوم) يحاكي ويقلد ببغاويا سياقات سلطوية محضة. فقد ضربت أمثال من سبقنا بـ (قصر شعشوع) الذي ملكه ثري عراقي يهودي و سكنه الملك فيصل الأول ردحا، والأمر برمته لا يتعدى أسماً على غير مسمى لمنزل زاهد، وكذلك الحال لمسميات (قصر الزهور) أو (قصر الرحاب)، أسماء مضخمة دون هيئات وصروح لقصور حقيقية، فلم تتعد مساحة مجموعها غرف الحراسة في أصغر قصور صدام.لقد سكن الزعيم العراقي الشهيد عبد الكريم قاسم في غرفة تحت الدرج في الكرادة، ومارس القيلولة في مكتبه في وزارة الدفاع،دون إسراف لقصور وبذخ فرعوني. وهكذا نخلص بأن تلك الممارسات هي من أمهات الهبوط النوعي الأخلاقي إبان حقبة البعث الكلحاء.

ومبدأ الزهد في البنيان من سمات العمارة العراقية الموروثة وتجسد بمبادئ الوظيفية والتكافؤية والكفافية و المباشرة والبيئوية والإختزال، و تداعى إلى تحاشي البهرج والصرحية والإختيال.ونلمس نفحات من النزعة والدعوة للزهد في ثنايا ملحمة كلكامش وكثير من النصوص الشعرية السومرية.

والزهد (Ascetisme في اللغة هو (الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه) كما ذكر ذلك ابن رجب،أو يرد ضد الرغبة وليس عدمها باطلاق، ومنه قولهم زهيد للقليل دون المعدوم..ويقال "خذ زهد ما يكفيك أي قدر ما يكفيك" وبذلك فالزهد هو القليل،ورجل زهيد الأكل قليله. وورد المعنى في الذكر الحكيم (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ). وورد في الحديث النبوي الشريف بما

يحدد تلك الصفة والمفهوم: (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذ أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك)، وقال الرسول الكريم أيضا (أزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس).

وقد رسم قدوة الزهاد الإمام علي بن أبي طالب(ع) خطابا أخلاقيا من خلال ممارستين: (الإعتدال في العيش دون الحرمان من الطيبات وهذه لعامة الناس، وإختيار الفقر والحرمان للأئمة). أو قوله بما ورد في (مرآة الزمان) لسبط بن الجوزي:(على أئمة الحق أن يتاسسوا بأضعف رعيتهم حالا في الأكل واللباس ولايتميزون عنهم بشئ). والزهد لدى الإمام إبي الحسنين يهدف إلى إقامة مجتمع المتقين المثالي، وحدد تلك الفلسفة في خطابه إلى محمد بن أبي بكر والي مصر: (أن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله،وشاركوا أهل الدنيا في دنياهم،ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباح لهم الله الدنيا ماكفاهم به وأغناهم..سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت،وأكلوها بأفضل ما أكلت،أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا، وهم غدا جيران الله يتمنون عليه فيعطيهم مايتمنون،لاترد لهم دعوة،ولاينقص لهم نصيب من اللذة،فإلى هذا ياعباد الله ليشتاق من كان له عقل، ويعمل له بتقوى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وأورد الطبري عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب(رض) قوله عن الحاكم:(أن لايركب الوالي برذونا ولايأكل نقيا ولايلبس رقيقا ولايتخذ بابا دون حاجات الناس.) والبرذون هو من وسائل النقل المقتناة من خاصة الناس وعليائهم. وورد عن عمر بما يخص أمور تفصيلية في البناء في قوله لسعد بن ابي وقاص عند توليه على الكوفة: (إياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس). ووردت الدعوة للزهد في الشعر العباسي عندما تصاعد الغلو في البذخ والإسراف من قبل السلاطين "مثل أيام البعث"،وظهور حركتي الزهاد و المتصوفة في البصرة الأموية ثم توسع منحى الزهد في بغداد العباسية:

إذا أردت شريف الناس كلهم فأنظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس رأفته وذاك يصلح للدنيا وللدين

وورد الزهد لدى بعض العلماء كما قال الفضيل بن عياض (الزهد هو الرضا عن الله) و قال سفيان الثوري (١٦١هـ-٧٧٧م) (الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء). ومن بواكير الفكر الصوفي في الإسلام نذكر ما قاله الحسن البصري الميساني (ت١١٠هـ-٧٢٨م): (الزاهد الذي رأى أحداً قال هو أفضل مني) (١٠).وجاء في الأخبار أن سال رجل الحسن البصري عن سر زهده في الدنيا فأجابه: (إنها أربعة أشياء علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فأطمأن قلبي وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي وعلمت أن الله مطلع علي فأستحييت أن يراني على معصية وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي). وقال الشيخ أبن تيمية (لا يحصل الأخلاق إلا الزهد،ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى متابعة الأمر والنهي). ومن مرادفات الزهد التقشف وهو أكثر من الزهد في مرتبة اللا رغبة.

ومن مرادفات الزهد مفهوما "الحرص" أو "الإقتصاد" اللذان يعنيان الوسطية في الصرف والتصرف. ويذكر إبن خلدون في تاريخ المبتدأ والخبر، رسالة طاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما، حيث يذكر: (وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شئ أبين نفعا ولا أجمع فضلا منه،والقصد داعية إلى الرشد،والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة،وقوام الدين والسنة الهادية بالاقتصاد، وكذا في دنياك كلها).

وعكس الزهد والاقتصاد يرد الإسراف أو التبذير ترد كثير من التفاسير في اللغة والفقه الإسلامي ومنها يقول الجرجاني بان الإسراف: (هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس)، وفي موضع آخر يقول الإسراف هو: (صرف الشيء زائدا على ما ينبغي، وبخلاف التبذير،فانه صرف الشيء فيما لا ينبغي). وعرف التبذير ابن العربي قائلا: (أنه تجاوز الحد المباح إلى المحظور)، وقال عن التبذير: (هو منعه من حقه ووضعه في غير حقه، بمعنى الإسراف).

وللنصوص الداعية للزهد تفسير فلسفي تنعكس من شعور المؤمن بالهوة السحيقة بين سمو الآخرة وحقارة الحياة الدنيا كما أسلفنا في رسالة الإمام أبي الحسنين.ويمكن أن يكون هذا سببا كافيا لأن تعلن جل الأديان كفاحها ضد الجميل لحدسها بأن ذلك الجميل يقيد الناس بالدنيا ويطمعهم بمتعتها الموجودة في الملبس والمأكل والأهم في العمارة التي هي خير محل لتفريغ حالة العافية التي تكتنف الإنسان وبذلك جاء الدين والفن الديني والعمارة الدينية موجبا على الناس خشية الخالق الضابط لتلك الجدلية.وبالرغم من ذلك فأن الديانات تعلن عداءها ضمنا للجميل لكنها لم تعلن عداءها "للسامي" الذي يعاضد الممارسة الأخلاقية في العقائد لما لها من تداخل مع الغيبيات التي تثنينا عن الإتيان بالقبائح. وكان من وراء عدم القطيعة مع "السامي" من تأثير عاطفي على الناس،حينما يترك لديهم دهشة، ويوقظ فيهم الحماسة من خلال الهيبة التي يفرضها على المتلقي فيشعر بعدم قدرته على المقارنة مع الظواهر الأخرى.

ينطبق هذا الأمر على جل الأديان ويستثنى منها الإسلام الذي يؤمن بالجمال الموضوعي كما وارد في الحديث (الله جميل ويحب الجمال). ووردت ممارسات هذا المذهب الصوفي في الأديان البوذية والمسيحية والمانوية قبل ورودها في الإسلام، وبالمقارنة فان اليهودية بنيت على مبادئ تجارية وكنز المال،غير داعية للزهد أساسا، واعتباره بابا للإيمان الصحيح، وسمة مشتركة لجمهور المؤمنين، كمطلب لبناء الحياة الروحية المثلى. وقد وصل البعض من النصارى إلى قناعات في ممارسة الرهبنة والتبتل والإعراض عن ملذات الدنيا في المأكل والملبس والفرج. ولكن الإسلام لم يقر ذلك المبدأ، وللمصطفى المختار (ص) حديث يستهجن فيه تلك الممارسة. وبالرغم من المنطلقات الصريحة في التسامح مع متطلبات النفس بالتلذذ المتقن،فقد شذ عن ذلك وبالغ كثيرا وتمادى رهط كبير من طبقة رجال الدين،وجل الملوك وبطاناتهم الذين وجدوا لهم في التمتع بملذات الدنيا، مخرجا فقهيا تفسيريا من ضمن النصوص المتسامحة.

ومن الجدير ملاحظته في أيامنا أن الإسلام أتى بحلول اقتصادية ذات روح إنسانية تحكمها الشريعة وضوابط العقيدة،وكرس الإسلام التكافل الاجتماعي والروح التعاونية بين الناس،وحدد أولويات وآليات منهجية لذلك. ولم يلغ الإسلام الطبقات الاجتماعية،على عكس ما تذهب إليه بعض المذاهب الحديثة، وأعتبر أن وجود الفوارق في الرزق بين البشر من حكم الله في خلقه،الهدف منه تكريس روح الطموح وحافز السعي نحو تحسين المستوى المعيشي للبشر، وليس مدعاة للتباهي والتمايز والمغالاة في الإسراف.

وورد في الذكر الحكيم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ). ولكن لم يصاحب إقرار الإسلام بالطبقات الاجتماعية،وبالتفاوت الطبقي،أي إقرار بالممارسة الشاذة عن الزهد والتعقل في الإسراف،والتواضع ويشمل ذلك حتى أصحاب الأموال الذي رفض لهم ممارسة كنزها. وقد ورد في الذكر الحكيم نقدا لاذعا لمن يسلك منهم ذلك المنهج اللاأخلاقي في الممارسة المعمارية:(وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ).

ويمكن اعتبار الغناء المادي بالمفهوم الإسلامي امتحاناً أخلاقيا للإيمان،أكثر من كونه مدعاة للتفاخر والخيلاء ويرد في قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). والخيلاء إحدى الصفات السيكولوجية لأهل البادية والأعراب،والذي نجد له نوازع ماكثة في النفوس البعيدة عن الإيمان الروحي حتى اليوم.

الزهد في العمارة

وردتنا أخبار العمائر الإسلامية الزاهدة الأولى، التي أقامها المسلمون في صدر الإسلام ابتداء من مسجد المدينة، مع حجراته الجانبية الذي أشاده الرسول الكريم بيده من مادة الطين وسقفة بجذوع النخيل وسعفه مثل أي دار للعامة.وقد مكث فيه حتى توفاه الله فدفن في إحدى حجراته.وجاءت الأخبار في حديث أبن السائب عن الإمام الحسن قال: (كنت أدخل بيوت أزواج الرسول(ص) في خلافة عثمان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي). وبذلك تكرست القدوة الأخلاقية للبناء الذي مارسه الخلفاء الراشدون من بعد الرسول، والمتجسد بجلاء في تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب حين أستأذنوه بناء الكوفة بالحجارة،وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل،فقال:افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاث أبيات.ولا تطاولوا في البنيان، وألزموا السنة تلزمكم الدولة). ويرد في السياق نفسه أن أمر عمر الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق (القدر)، فسألوه الناس وما القدر فقال (وإلا يقربكم من السرف ويخرجكم عن القصد). وقد أعتقد إبن خلدون أن نزعة الإسراف والترف في البنيان وردت الى العرب من الفرس والقبط والنبط والروم، ونسي بأنه حالة متجذرة في السجية البشرية، ويدخل ضمن باب غريزة التملك.

ولم يعمر ذلك المنحى الزاهد طويلا، فبعيد عصر الخلفاء الراشدين الذي اضطلع فيه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بمنهجية العمران والعمارة والخليفة علي بن أبي طالب(رض)، بالمنهج الثقافي والجمالي والفني. نقل بعيدها بنو أمية عاصمة الدولة إلى دمشق ثم أثروا حياة الترف وتأثروا بطابع الحياة البيزنطية المتماشية مع هذا المنحى ثم اتخذوا ما يناسبهم من العمارة السورية-البيزنطية منهجا للخيلاء وممارسة ملذات العيش.ويقال عن (الوليد بن عبدالملك) الأموي أنه أنفق جباية الضرائب على الأراضي الشامية لمدة سبع سنوات لبناء المسجد الكبير في دمشق. وبذلك انحرفوا بالسير الزاهد المرسوم سلفا.

وعلى عكس تلك النزعة فقد ورد في ممارسة الزهد من أخبار الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز أنه أستكثر البذخ الذي شيد به مسجد دمشق الجامع،حيث نقل عن صفوان بن صالح قال (سمعت عمر بن عبد العزيز، وذكر مسجد دمشق، فقال رأيت أموالا انفقت في غير حقها، فأنا مستدرك ما استدركت منها، فراده إلى بيت المال: أعمد إلى ذلك الفسيفساء والرخام،فأقلعه وأطينه، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالا، وأنزع تلك البطائن. وأبيع جميع ذلك).

وخلف العباسيون الأمويين، و ساروا على النهج نفسه وزادوا فيه حينما تأثروا بالحياة الساسانية والعمارة الصرحية العراقية، كما هي صريحة في عمائر سامراء الباقية. وبذلك غيروا في جوهر الحياة الإسلامية ونقلوها إلى روح جديدة من البذخ والأبهة والخيلاء،غير المشابهة لما كان سائدا خلال سنين الإسلام الأولى، لاسيما فيما يتعلق بمتاع الدعة وشظف العيش. ولكن فاتهم في ذلك التعليمة الواردة في المنظومة الأخلاقية للإسلام والتي وردت في الذكر الحكيم "إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا" وذلك النعت ترك أثره في بواطن العقلية الإسلامية، وكانت للقدوة الحسنة أثرها في ذلك. ويعرف الجميع سيرة الخليفة عمر الذي آثر القيلولة تحت ظلال إحدى نخيل المدينة عندما أتاه رسول ملك الروم فنعتوا له مكانه، فتعجب من عدم وجود قصر يؤم هذا (السلطان) بحسب العقلية التي ألفها.وجاء في ذكر الزهاد من الصحابة ممن أثبتوا بسيرهم سمو العقيدة المسيرة لسجاياهم،ومنهم عبد الله بن عمر وسلمان الفارسي وعمر بن عبد العزيز وأبو ذر الغفاري الذي نقل عن أخباره بأن زوجه لم تجد ما تكفنه به بعد وفاته،وهو صاحب الرسول الكريم.

وإذ نلاحظ بما يخص الممارسة المعمارية في المجتمعات الإسلامية بأن هيئة البيوت، فضاءاتها وملكاتها المساحية والتقنية، لا تحمل تلك الفوارق الطبقية الشاسعة، مثلما هو عليه في المجتمعات والثقافات الأخرى. ويكمن كبير الفرق في الجانب التزويقي والجمالي، والتجهيزي للبيوت. وورد في تاريخ (أبن خلدون) (١٣٣٣-١٤٠٨) ما يعتبر سابقة في ملاحظة الشرخ الذي أوجده الغلو في الإسراف على البنيان، مقارنا مع سيرة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب(رض) قائلا: (وكان الدين أو الأمر مانعا من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد، كما عهد لهم عمر بن الخطاب حين أستأذنوه بناء الكوفة بالحجارة،وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل،فقال:افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاث أبيات.ولا تطاولوا في البنيان، وألزموا السنة تلزمكم الدولة). ويرد في السياق نفسه أن أمر عمر الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق (القدر)، فسألوه الناس وما القدر فقال (وإلا يقربكم من السرف ويخرجكم عن القصد). وقد أعتقد إبن

دون كيشوت العربي

بيارنة ستينكفست❖

ترجمة د.سعيد الجعفر

قيل أن الإرث الثقافي الأوربي يمت بجذوره الموغلة في القدم الى الإرث الأغريقي واليهودي والمسيحي، لكن الثقافة الإسلامية تملك دورا حاسماً بالمستوى ذاته في أسبانيا العصور الوسطى. لماذا تم تحجيم ذكرى الأندلس؟ هكذا تساءل بيارنه ستينكفست.

ثمة طرح دائم بأن الأسلام لم يمر بنوع من الإصلاح، على عكس حال المسيحية، لكن هذا الرأي ينسى الدور المركزي للإسلام في تكوين عصري النهضة والتنوير،بل في تكوين أوربا الحديثة برمتها لقد لعبت الأندلس أو إسبانيا الإسلامية بشكل رئيس الدور الرائد في تمهيد الطريق لأوربا. ظهرت الأندلس بين أعوام ٧١١ الى ١٤٩٢ من خلال الخلافة في قرطبة، التي إستقلت عن بغداد،وكان ذلك المرحلة القصوى في تطورها. ومن خلال مدن مثل طليطلة وغرناطة وأشبيلية وصلت الترجمات والتعليقات العربية على الفلاسفة الإغريق والتي أعادت ربط أوربا بالأرث الهيليني. فقد ساهم الفيلسوف إبن رشد المولود في قرطبة وأقرانه وبشكل جوهري في رفد مفهوم مفاده :العقل يأتي قبل الوحي. وقد كانت تعليقاته على أرسطو- والتي سبقت ديكارت بأربعة قرون- واحدة من الدعائم الأساسية التي استند اليها التعليم في جامعة باريس. كذلك فمن خلال إسبانيا الإسلامية تدفقت وتطورت الإنجازات العلمية في الرياضيات والفلك وعلم التعدين وعلم المكتبات وتخطيط المدن، حيث كانت ثقافتها تتميز بالتسامح والتعطش للمعرفة وفيها عاش المسلمون والمسيحيون واليهود في وئام يعتبر إستثنائيا في ذلك الزمن. لقد شكلت الأندلس عالماً كانت فيه اللغة العربية هي الأداة المشتركة للتعبيرالثقافي، وحيث جرى إحتضان الطرز الجديدة من الموسيقى واللباس، وحيث إزدهر شعر الغزل اليهودي، وجرى إنتقاء ألوان الخضراوات بعناية حين كان يجري تحضير المأكولات، وحيث كانت جموع الناس تؤم الحمامات.

دامت هذه الحقبة المصيرية والمتميزة لتأريخ كل من أوربا والإسلام، لأكثرمن ثلاثة أضعاف التأريخ المعروف للولايات المتحدة. ومع ذلك جرى تحجيمها في كلا العالمين الشرقي والغربي. وبرغم ذلك فقد صدرت في الفترة الأخيرة العديد من الكتب والتقارير حول الأندلس. وتلقي تلك الكتب والتقارير ضوءاً جديداً على علاقة الغرب المزعزعة بشكل غير طبيعي بعالم الإسلام، لكنها تضخ طاقة في السجالات الحداثية المتصاعدة في العالم الإسلامي.

بيد أنني سأتحدث ببضع كلمات عن كيف أن ذكرى الأندلس إبتعدت عن السطح بعد طرد اليهود والمسلمين الأسبان ابتداء من عام ١٤٩٢ فصاعداً. لقد كان واجب محاكم التفتيش هو نسف كل مايمت للتنوع الديني والثقافي بصلة، فقد تأخر الأعتراف الرسمي بكون العاصمة الأسبانية قد أسست من قبل المسلمين وأن إسمها مأخوذ من الكلمة العربية (مجريط) حتى الخمسينيات.بالقسوة نفسها مسح من الذاكرة كون اليهود كانوا يتبؤون في تلك الحقبة مناصب رفيعة ضمن الحشد الهائل من التنظيمات الحكومية الإسلامية والمسيحية التي تشكلت منها شبه الجزيرة الإيبيرية في النصف الأول من الألفية السابقة، ولهذه الذكريات الممنوعة يلمح سرفانتس في الفصل التاسع من روايته الشهيرة، صدر الجزء الأول من الكتاب عام ١٦٠٥، مباشرة قبل الفترة التي جرى فيها طرد الموريسكيين، وهم المسلمون الذين إعتنقوا المسيحية. ويقول هو في الجزء المذكور أن قصة فارس (لامانش) كتبت أصلاً من قبل مؤرخ عربي وأن سرفانتس التقاه في طليطلة حين كان يتجول في الحي اليهودي القديم من المدينة، والذي هجره سكنته الأصليون منذ أمد طويل. فتى ما حاول أن يخدع أحد البزازين بأن يبيعه كتاباً قديماً مكتوباً باللغة العربية. وفي مدينة المكتبات طليطلة، التي كانت حتى القرن الرابع عشر (تحت حماية الملوك المسيحيين) مركزاً لترجمة النصوص من العربية الى اللغتين اللاتينية والعبرية، كان يجري بيع تلك الكتب كالخرق البالية. و لكي يقرأ القصة أجبر على البحث عن شخص ما يعرف القراءة باللغة العربية، " الأمر الذي لم يكن صعباً في مدينة طليطلة، حيث تمكنت حتى من أن أجد شخصاً يتقن العربية الأقدم والأكثر رونقاً".

وكانت الأندلس بالنسبة لليهودية الأوربية الصاعدة في القرن التاسع عشر رمزا. ويبدو هذا واضحاً من بين الكثير من الأشياء حين يلاحظ المرء الكنس التي جرى بناؤها في أوربا والولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن افضل الأمثلة على ذلك الكنيس المركزي في ليكسنجتون أفنيو في نيويورك، الذي إستعار الكثير من الملامح الطرازية، وبشكل جلي من المسجد الكبير في قرطبة.

وثمة حنين الى ذلك العصر الذهبي للإسلام والى جنائن قرطبة المفقودة يعم العالم الإسلامي. وأحد الأسباب هو أن إسبانيا الإسلامية جرى إرساؤها وتشييد صروحها خلال قرون عديدة من قبل الأمويين، ذلك الفرع من ورثة الخلافة الإسلامية ذوي المسحة العلمانية والذين حكموا العالم الإسلامي بين أعوام ٦٤٤ الى ٧٥٠ م. فهم الذين جعلوا دمشق الرومانية والبيزنطية عاصمة لهم ومنها انطلقوا ليؤسسوا امبراطورية تشبه في وجوه كثيرة الإمبراطورية الرومانية. ولقد قاموا بفتوحاتهم محترمين وحامين "لأهل الكتاب"، أي اليهود والمسيحيين، مادام هؤلاء يعرفون لمن تكون السيادة.

بيد أن نهاية الإمويين كانت دامية حيث ذبحت العائلة الأموية بكاملها عام ٧٥٠ م في ضيعهم المنتشرة خارج دمشق. وكان الذين جردوا عليهم السيوف هم العباسيون. وقد وجه العباسيون وجوههم صوب الشرق وجعلوا بغداد المكان المركزي للعالم الإسلامي خلال عقود عديدة. ومن هناك قاموا،من بين ماقاموا به، بإنجاز مشروع طويل الأمد لترجمة النصوص الإغريقية الى اللغة العربية.

في كتاب" مفخرة العالم "تتحدث ماريا روزا مينوسال عن القصة المثيرة عن الكيفية التي استطاع بها العضو الوحيد في العائلة الذي نجا من المذبحة الفتى عبد الرحمن أن يصل الى القاعدة الموجودة في أقصى الغرب في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومن خلال ذلك بدأت الأندلس تنمو شيئاً فشيئاً وكأنها حلم أموي ولد من جديد، في تفاعل ولكن أيضاً في تنافس مباشر مع العباسيين في بغداد.

لكن حتى الأمويين في الأندلس شهدوا نهايتهم. ففي بداية الالف الأول مزق المحافظون المسلمون من البربر الخلافة في قرطبة ونهبوا المدينة. وبعد هذا بدأ اختلاس تدريجي للأرث الثقافي الأموي. وفي بداية القرن الثاني عشر بدأت حتى الخلافة في بغداد تترنح. وقد قاد ذلك تدريجياً الى الكثير من التزمت الديني والسياسي والى سيادة أكبر للشروح المحافظة للإسلام، والتي استمرت حتى يومنا هذا.

ويمكن رؤية أسباب عديدة للإهتمام المتصاعد بالأندلس حالياً:

فبعد الحادي عشر من أيلول واحتلال العراق تصاعدت الحاجة الى "بداية جديدة" في علاقة الغرب بالعالم الإسلامي. وتميط الأندلس اللثام عن المديونية الثقافية والحضارية الغربية للإسلام. ففي الخريف قام البرنامج الإنمائي التابع للأمم المتحدة بنشر تقريره الثالث عن " النمو الإنساني العربي". حيث جرى تحضير التقريرين السابقين من قبل أكاديميين عرب قدموا صورة محزنة عن الحياة الثقافية في الوطن العربي. فرقم واحد يحكي الكثير: فخلال الألف سنة الأخيرة تمت ترجمة ١٠٠٠٠ كتاب من اللغات الأخرى الى العربية. وهو يعادل الترجمات من اللغات الأخرى الى الأسبانية كل سنة! ويمكننا القول بلا تردد بأن العالم العربي- دون الحاجة الى الإيغال في قنوط أكثر- بحاجة الى إعادة الإرتباط بالتعطش المعرفي الذي طبع بطابعه الأندلس.

ويجري بين صفوف المثقفين المسلمين نقاش يتصاعد وتشتد حدته حول علاقة الإسلام بالحداثة وما بعد الحداثة. ويقول بعض المفكرين المسلمين التقدميين مثل المفكر الإيراني عبد الكريم سوروش أن تحديث الإسلام يجب أن يقوم على أساس الشك المعرفي-الفلسفي.إن الأزمة التي تعاني منها النظرة الإسلامية التقليدية هي نتيجة لا مفر منها لكون الإسلام أصبح جزءاً من العالم الحديث. إن القلق والأزمة هما جزء من التحديث ولا يوجد طريق رجعة يمكن للإسلام أن يختاره كما يقول سوروش. وفي وضع كهذا يكتسب موقع المثقفين المشابه لما حدث مع الأمويين والى حد ما مع العباسيين ملاءمة جديدة.

وحول ذلك تورد ماريا روزا مونيكال ملاحظة مهمة: لم تفقد الأندلس بسبب التفوق العسكري للقوات المسيحية. السبب الأساس هو أن الإنفتاح الأممي الذي طبع الأندلس أفسح تدريجياً المجال للتيارات المبنية على أساس التفكير القبلي والإسلامي المحافظ. وهذه التيارات تشبه مايجري اليوم دعمه من قبل العائلة المالكة السعودية والآخرين.

في المدينة التي أسكنها، مالمو، يشكل أبناء مهاجرين ٥٢٪ من السكان ذوي الأعمار دون الثامنة عشرة. والسواد الأعظم من هؤلاء المهاجرين هم من المسلمين، في الأقل بالمعنى الثقافي. ومع ذلك فإن قطاعات من هذا القسم مهمشة اصلاً الآن وهو مصير يتقاسمونه مع الكثير من أبناء المهاجرين في أوربا. و يبدو لدى الذين يسيرون شؤون المدينة نوع من الخمول والإرتباك في كيفية دفع هؤلاء الفتية الى جذوة الدراسة والإبداع. وهذا الخمول، الذي يطبع المجتمع السويدي بكامله، سينتعش لو جرى رفع الوعي بالمشتركات الموجودة بين الإسلام وأوربا- وهي في الكثير من أجزائها موفقة- تأريخيا.

❖بيارنه ستينكفست كاتب وصحفي سويدي لديه مجموعة من الكتب